

يا عمال العالم، اتحدوا!

طريق البلشفية



سؤالين

ملاحظات في مواضيع راهنة

(2. الصين)

28 تموز 1927

ترجمة

محمد علي العربي

نشر البلشفية العربية

تونس، آذار 2012

المصدر المعتمد في الترجمة:

NOTES ON CONTEMPORARY THEMES

J. Stalin: Works, Vol. 9, p. 337-369
Foreign Languages Publishing House
Moscow, 1954

يمكننا الآن وقد دخلت الثورة الصينية طورا جديدا من التطور أن نقيم الطريق الذي سلكته ونتحقق من خطأ الأيمية الشيوعية في الصين. ثمة جملة من المبادئ التكتيكية اللينينية إذا لم ننظر فيها استحالت قيادة صحيحة للثورة، واستحال تحقق صحيح من خطأ الأيمية الشيوعية في الصين. فقد نسي أنصار المعارضة تلك المبادئ منذ زمن بعيد. ولأنها تحديدا تشتكي فقرات من الضروري أن نذكر بتلك المبادئ التكتيكية مرارا وتكرارا. إليكم المبادئ التكتيكية اللينينية:

- المبدأ الذي يقضي أن نأخذ ما يوجد من مميزات وخاص قوميا في كل بلد بمفرده بعين الاعتبار وجوبا عندما نصوغ تعاليم الأيمية الشيوعية للحركة العمالية في تلك البلدان.
 - المبدأ الذي يقضي أن يستغل الحزب الشيوعي في كل بلد حتى أقل إمكانيات ليضمن للطبقة العمالية حليفا جاهريا ولو كان حليفا مؤقتا وغير ثابت وهشًا وغير موثوق.
 - المبدأ الذي يقضي أن نتمسك بحقيقة أن الدعاية والتحريض لا يكفيان لتربية الجماهير الغفيرة تربية سياسية؛ فمن اللازم أن تقوم الجماهير بتجربتها السياسية الخاصة بها.
- أعتقد أننا إذا لم نأخذ هذه المبادئ التكتيكية اللينينية بعين الاعتبار استحال علينا الشروع في تفحص خطأ الأيمية الشيوعية في الثورة الصينية تفحصا ماركسيًا.

رغم التطور الإيديولوجي يوجد بيننا، في صفوف حزبنا، ضرب من «القادة» يعتقدون بكل ثقة أنّ من الممكن قيادة الثورة في الصين بتلغراف أساسه الأطروحات العامة للأمية الشيوعية، تلك الأطروحات التي يعرفها الجميع وصادق عليه الجميع، دون أن تأخذ المميزات القومية في الاقتصاد الصيني وفي الثقافة الصينية، وفي العادات والتقاليد الصينية بعين الاعتبار. فهؤلاء «القادة» يختلفون، على وجه التحديد، عن القادة الحقيقيين بأنّ لهم في جيوبهم صيغتان أو ثلاث صيغ جاهزة و«صالحة» لجميع البلدان، و«ضرورية» في جميع الظروف. فلا توجد عندهم أبدا قضية علاقة الأطروحات العامة للأمية الشيوعية بالمميزات القومية عند الحركة الثورية في كلّ بلد، وتطويع الأطروحات العامة للأمية الشيوعية للمميزات القومية والسياسية في مختلف البلدان.

إنّهم لا يفهمون أنّه الآن وقد عظمت الأحزاب الشيوعية وباتت أحزابا جماهيرية، أصبحت المهمة الرئيسية عند القيادة هي أن تكتشف وتقف على المميزات القومية عند الحركة في كلّ بلد، فتربطها بحكمة بالأطروحات العامة للأمية الشيوعية حتى يسهل تطبيق وتحقيق الأهداف الرئيسية عند الحركة الشيوعية.

ومن هنا كانت محاولة خلق قوالب توجيهية لكلّ البلدان، وكانت محاولة غرس بضع صيغ عامّة غرسا آليا دون أخذ الظروف الملموسة عند الحركة في كلّ بلد بعين الاعتبار؛ فقام تصادم أزلي بين الصيغ والحركة الثورية في مختلف البلدان كنتيجة جوهرية عند قيادة أولئك القادة التّعساء.

ينبغي أنصار المعارضة عندنا إلى هذا الصنف من القادة التّعساء على وجه التحديد. علمت المعارضة أنّ ثورة برجوازية تجري في الصين، وتعلم أيضا أن الثورة البرجوازية في روسيا كانت موجهة ضدّ البرجوازية؛ فإذا بصيغة جاهزة للصين: ليسقط كلّ عمل مشترك مع البرجوازية. وليعش انسحاب الشيوعيين الفوري من الكيومينتانغ (نيسان 1926).

لكن، نسيت المعارضة أنّه على خلاف روسيا في عام 1905، فإنّ الصين بلد شبه مستعمر تضطهده الإمبريالية؛ ولهذا السبب باتت ثورة الصين لا محمّدة ثورة برجوازية بل ثورة برجوازية من النوع المعادي للإمبريالية. فبسبب كون الإمبريالية في الصين تضع بين يديها الأساسي من عناصر الصناعة والتجارة والتقل، وبسبب كون نير الإمبريالية مسلّط لا فقط على الجماهير الشغيلة في الصين بل هو مسلّط أيضا على بعض الفئات من البرجوازية

الصينية؛ فيمكن، إذن، أن تدافع البرجوازية الصينية عن الثورة الصينية في ظروف محددة لمرن محدد.

ذلك ما حدث كما نعلم. فإذا ما تناولنا من الثورة الصينية فترة كانتون؛ زمن بلوغ الجيوش الوطنية نهر يانغ-تسي-كيانغ وهي الفترة التي سبقت انشقاق الكيومينتانغ، لن يكون بإمكاننا أن ننكر دفاع البرجوازية الوطنية عن الثورة في الصين. وأنه قد اتضح أنّ خطّ الأممية الشيوعية القاضي بقبول عمل مشترك مع تلك البرجوازية زمنا محّدا في ظروف محدّدة كان مطلق الصحة.

النتيجة: تخلّت المعارضة عن صيغها القديمة وأعلنت صيغا أخرى «جديدة» مفادها أنّ العمل المشترك مع البرجوازية الصينية ضروري، فلا يجب أن ينسحب الشيوعيون من الكيومينتانغ (نيسان 1927).

كان ذلك أول عقاب يسلّط على المعارضة لرفضها أخذ المميّزات القومية في الثورة الصينية بعين الاعتبار.

علمت المعارضة أن حكومة بيكين تخاصم ممثلي الدول الإمبريالية في الاستقلال الجمركي في الصين. وتعلم المعارضة أن الاستقلال الجمركي ضروري قبل كلّ شيء للرأسماليين الصينيين. وإذا بصيغة جاهزة تماما: الثورة الصينية ثورة وطنية معادية للإمبريالية هدفها الرئيسي كسب استقلال الصين الجمركي.

لكن نسيت المعارضة أنّ قوة الإمبريالية في الصين لا تكمن في الحواجز الجمركية بل خصوصا في ما تمتلكه في الصين من مصانع ومعامل ومناجم وسكك حديدية وبواخر وبنوك ومؤسسات تجارية تمتصّ دم عدد عظيم من عمال الصين وفلاحها.

لقد نسيت المعارضة أنّ النضال الثوري الذي يخوضه الشعب الصيني ضدّ الإمبريالية يُفسّر، قبل كلّ شيء، وعلى الأخص، بكون الإمبريالية في الصين هي القوة التي تُسند المستغلّين المباشرين للشعب الصيني - إقطاعيون، عسكريون، رأسماليون، بيروقراطيون، الخ-، ويكون العمال والفلاحين الصينيين لن يستطيعوا الانتصار على مستغلّهم إذا لم يخوضوا، في ذات الوقت، نضالا ثوريا ضدّ الإمبريالية.

تنسى المعارضة أنّ هذه الحالة تحديدا هي أحد العوامل الجوهرية التي تمكّن من تحويل الثورة البرجوازية ثورة اشتراكية في الصين.

تنسى المعارضة أنّ من يجد في الثورة الصينية المعادية للإمبريالية ثورةً من أجل الاستقلال
الجمركي إنّما هو يبغي إمكان تحويل الثورة البرجوازية في الصين ثورةً اشتراكية لأته يسلم
الثورة الصينية إلى قيادة البرجوازية الصينية.

والحق أنّ الوقائع بيّنت، فيما بعد، أنّ الاستقلال الجمركي هو من جهة الأساس أرضية
البرجوازية الصينية؛ فحتى أولئك الرجعيون الكبار أمثال تشانغ تسولين وتشانغ كاي-تشاك
يتشدّدون اليوم في إلغاء المعاهدات الجائرة وإرساء استقلال الصين الجمركي.

وهنا كانت ازدواجية المعارضة: محاولتها تجنب صيغتها الخاصة المتعلقة بالاستقلال الجمركي؛
ومحاولة فيها بالكتمان والالتحاق بموقف الأمية الشيوعية المتعلق بإمكان تحويل الثورة
البرجوازية في الصين ثورةً اشتراكية.

كان ذلك ثاني عقاب سلط على المعارضة لرفضها درس المميزات القومية في الثورة الصينية
درسا جيّداً.

علمت المعارضة أنّ البرجوازية التجارية تسلّت إلى التريف الصيني وأجرت الفلاحين الفقراء
الأرض. وتعلم المعارضة أنّ التاجر ليس إقطاعياً. فإذا بصيغة جاهزة تماماً: لا أهمية جدية في
بقايا الإقطاع، وبالتالي في نضال الفلاحين ضدّ مخلفات الإقطاع من جهة الثورة الصينية؛
فالرئيسي اليوم في الصين ليس الثورة الزراعية بل هو التبعية السياسية-الجمركية للبلدان
الإمبريالية.

لكنّ المعارضة لا ترى أنّ أصالة الاقتصاد الصيني لا في تسلل رأس المال التجاري إلى
التريف وإنّما في كون هيمنة مخلفات الإقطاع تندمج بوجود رأس المال التجاري في التريف
الصيني مع الحفاظ على استغلال واضطهاد الفلاحين بالطرق الإقطاعية من القرون
الوسطى.

لا تفهم المعارضة أنّ الآلة العسكرية والبيروقراطية في صين أيّامنا، تلك الآلة التي تنهب
وتضطهد الفلاحين الصينيين بوحشية، هي بالأساس بنية فوقية سياسية ترتفع على نظام
تمتاز فيه هيمنة بقايا طرق الاستغلال الإقطاعي بوجود رأس المال البضاعي في التريف.

والحق أنّ الوقائع بيّنت، فيما بعد، أنّ ثورة زراعية عظيمة قد اندلعت في الصين؛ ثورة
موجهة، قبل كلّ شيء، وعلى الأخص، ضدّ الإقطاعيين في الصين كباراً وصغاراً.

ويُتّقد الوقائع أن هذه الثورة قد جرّت عشرات الملايين من الفلاحين وأنها تمتدّ لتشمل كامل الصين.

لقد يتّقد الوقائع أنّ الإقطاعيين الحقيقيين والأحياء ليسوا موجودون فحسب بل يسكنون بالسلطة في جملة كاملة من المحافظات، ويفرضون إرادتهم على قيادة الجيش، ويخضعون قيادة الكيوميتانغ لتأثيرهم، ويسدّدون للثورة الصينيّة الضربة تلو الضربة.

إنّ من ينبغي بعد ذلك وجود بقايا الإقطاع ونظام الاستغلال الإقطاعي من جهة أنّه الشّكل الرئيسي للاضطهاد في الرّيف الصيني، إنّما هو لا يعترف بعد ذلك بأنّ الثورة الزراعيّة هي واقع جوهرية في الحركة الثّوريّة الصينيّة في الوقت الحالي. وما كلّ ذلك سوى سير عكس الوقائع البديهيّة.

لذا، تخلّت المعارضة عن صيغتها القديمة المتعلّقة ببقايا الإقطاع والثّورة الزراعيّة. ولهذا السبب تبحث المعارضة عن التخلي عن صيغتها القديمة بتكّم وقبول مواقف الأميّة الشيوعيّة ضمنيًا.

كان ذلك ثالث عقاب يسلّط على المعارضة لرفضها أن تأخذ المميّزات القوميّة في اقتصاد الصين بعين الاعتبار.

الح، الح،...

تناقض بين الصيغ والوقائع ذلك ما يقف عليه أولئك القادة التّعساء. ينتج ذلك التناقض مباشرة من رفض المعارضة المبدأ التكنيكي اللينيني المعروف جيّدًا والذي يقضي بأنّ نأخذ ما يوجد من مميّز قوميًا وخاصّ قوميًا في الحركة الثّوريّة في كلّ بلد مفرد بعين الاعتبار.

إلّا كيف يصوغ لينين هذا المبدأ:

«المهمّ اليوم هو أنّ يعي الشيوعيون في كلّ بلد وعيا تامًا، من جهة أولى بالأهداف الأساسيّة - أهداف مبدئيّة- في التّضال ضدّ الانتهازيّة والعقائديّة «اليساريّة»، ومن جهة ثانية بالخصائص الملموسة التي يتخذها هذا التّضال والتي لا بدّ أن يتخذها في كلّ بلد مفرد، وفقًا للخصائص المميّزة التي تسم اقتصاده وسياسته وثقافته وتركيبه القومي (أيرلندا وغيرها) ومستعمراته وطوائفه الديّنيّة وغير ذلك. ففي كلّ مكان نلمس اتّساع عدم الرضا بالأميّة الثّانية وتعاضمه، أكان ذلك بسبب انتهازيّتها أم بسبب عجزها عن خلق منظّمة ممرّكة حقًا

بمثابة مركز قيادي كفاء لتوجيه تكنيك الطبقة العالمة الثورية العالمي في نضالها في سبيل جمهورية سوفيتية عالمية. يجب أن ندرك بوضوح أنه لا يمكن أبدا أن يؤسس مثل ذلك المركز القيادي عمله على القولية والسطحية والمائلة الآلية في قواعد النضال التكتيكية. فما دام اختلاف الشعوب والبلدان في القومية والسياسية قائم، وستبقى تلك الاختلافات زمنة طويلا جدا حتى بعد تحقيق دكتاتورية الطبقة العالمة في النطاق العالمي، فإن وحدة التكتيك العالمي عند الحركة العالمة الشيوعية في كل البلدان لا يتطلب إزالة التنوع ولا استئصال الاختلافات القومية (فما ذلك الآن إلا حلم سخيف) بل يتطلب تطبيق المبادئ الأساسية في الشيوعية (سلطة السوفييتات ودكتاتورية الطبقة العالمة) تطبيقا يغير على نحو صحيح تلك المبادئ في القضايا الخاصة، ويلائمها ويعدلها وفق ما تتطلبه الخصوصيات القومية والسياسية. البحث والدراسة والاكتشاف والاستشراف والفهم في ما يوجد من خصوصية قومية وسمه قومية في الطريقة العملية التي يتناول فيها كل بلد حل القضية العالمة المشتركة بين الجميع: هزم الانتهازية والعقائدية اليسارية في الحركة العالمة والإطاحة بالبرجوازية وتركيز جمهورية السوفييتات ودكتاتورية الطبقة العالمة - تلك هي المهمة الرئيسية الملقاة على عاتق جميع البلدان المتقدمة (وليس البلدان المتقدمة وحدها) في اللحظة التاريخية التي نجتازها» (لينين، «اليسارية» مرض طفولي في الشيوعية، المجلد 25، ص 60)

خط الأمية الشيوعية هو الخط الذي يقضي بأن نأخذ هذا المبدأ التكتيكي في اللينينية بعين الاعتبار جبرا.

خط المعارضة هو عكس ذلك فهو يقطع الصلة بهذا المبدأ. تكمن جذور ضلال المعارضة في قضايا طابع الثورة الصينية وآفاقها في ذلك القطع على وجه التحديد.

لنتقل إلى المبدأ التكتيكي الثاني في اللينينية. تنساب قضية حلفاء الطبقة العالمة في نضالها في سبيل الثورة المظفرة من طابع الثورة الصينية وآفاقها. إن قضية حلفاء الطبقة العالمة هي واحدة من القضايا الأساسية في الثورة الصينية.

تجد الطبقة العاليتة الصينية عدوًا قويًا أمامها: الإقطاعيون كبارا وصغار، الجهاز العسكري والبيروقراطي من العسكريين القدماء والجدد، والبرجوازية الوطنية المعادية للثورة، وإمبريالي الشرق والغرب الذين وضعوا بين أيديهم الجوهري من عناصر الحياة الاقتصادية في الصين ويسندون حقهم في استغلال الشعب الصيني بجيشي البر والبحر.

فلأجل هرم أولئك الأعداء الأقوياء يجب على الطبقة العاليتة، من مجمل ما يجب عليها، أن تسلك سياسة مرنة ومتبصرة وأن تحسن استغلال أي تصدع في معسكر الأعداء وأن تحسن إيجاد حلفاء حتى إن قلّ ثباتهم وقلّت صلابتهم لكن شرط أن يكونوا **أقوياء في العدد ولا يضيّقوا الخناق أبدا** على ما يقوم به حزب الطبقة العاليتة من دعاية وتحريض ثوريين وأن **لا يضيّقوا الخناق أبدا** على عمل ذلك الحزب في تنظيم الطبقة العاليتة والجماهير الشغيلة. إن هذه السياسة هي المطلب الجوهري الذي يقضي به المبدأ التكتيكي الثاني في اللينينية. فبدون سياسة كالتّي ذكرنا استحالة نصر الطبقة العاليتة.

تعتقد المعارضة أنّ هذه السياسة خاطئة وغير لينينية. لا يبيّن ذلك سوى أنّها فقدت آخر بقايا اللينينية، وأنّها بعيدة عن اللينينية بعد السّاء عن الأرض. هل كان للطبقة العاليتة الصينية حلفاء من ذاك القبيل الذي ذكرنا في الماضي القريب؟ نعم. كان لها ذلك.

فلما كانت الثورة عند أول مراحلها، مرحلة الجبهة الوطنية العامّة المتّحدة (مرحلة كاتون) كان الفلاحون وفقراء المدن والمتشّفون البرجوازيون الصّغار والبرجوازية الوطنية حلفاء الطبقة العاليتة.

إنّ إحدى مميّزات الحركة الثورية الصينية هي أنّ ممثلو تلك الطبقات قاموا والشيوعيين بعمل مشترك في ذات المنظّمة الثورية البرجوازية الوحيدة التي تسمّى الكيومينتانغ. لم يتساوى أولئك الحلفاء في الإخلاص. ولا يمكن أن يكونوا إلّا كذلك. فكان بعضهم حليفا أكثر إخلاصا (الفلاحون وفقراء المدن) وكان بعض ثان حليفا أقلّ إخلاصا ومتردّدا (المتشّفون البرجوازيون الصّغار) وكان البعض الأخير حليفا لا إخلاص له مطلقا (البرجوازية الوطنية).

لا جدال في أنّ الكيومينتانغ كان منظّمة جاهريّة إلى حدّ معيّن. وقامت سياسة الشيوعيين فيه آنذاك على عزل ممثلي البرجوازية الوطنية (اليمين) من خلال استغلالهم في صالح

الثورة؛ ودفع المثقفين البرجوازيين الصغار (اليسار) نحو اليسار؛ وجمع الفلاحين وفقراء المدن حول الطبقة العمالية.

هل كانت كاتنون آنذاك مركز الحركة الثورية في الصين. نعم. لا جدال في ذلك. ولا ينكره إلا مغرب.

ما كانت نجاحات الشيوعيين في تلك الفترة؟ ببلوغ جيوش كاتنون نهر يانغ-تساي-كيانغ اتسعت رقعة الأرض التي شملتها الثورة؛ إمكان تنظيم الطبقة العمالية تنظيمًا علنيًا (نقابات، لجان الإضراب)؛ توحد المنظمات الشيوعية في حزب؛ خلق أولى الخلايا التنظيمية الفلاحية (اتحادات الفلاحين)؛ تسلل الشيوعيين إلى الجيش.

يتضح من ذلك أنّ قيادة الأمانة الشيوعية في تلك الفترة كانت على صواب تام. في زمن المرحلة الثانية من الثورة الصينية، لما انتقل تشان كاي-تشاك والبرجوازية الوطنية إلى معسكر أعداء الثورة، وانتقل مركز الحركة الثورية من كاتنون إلى ووهان كان الفلاحون وفقراء المدن والمثقفون البرجوازيون الصغار حلفاء الطبقة العمالية.

كيف نفسر انتقال البرجوازية الوطنية إلى معسكر أعداء الثورة؟ أولاً، الخوف الذي تملكها من اتساع حركة العمال الثورية. ثانياً، الضغط الذي مارسه عليها الإمبرياليون في شنغهاي. لقد خسرت الثورة، على هذا النحو، البرجوازية الوطنية. كانت خسارة جزئية في الثورة. لكن الثورة كانت قد دخلت مرحلة من تطورها أعلى، هي مرحلة الثورة الزراعية، وجذبت إليها وعلى نحو كبير جماهير الفلاحين العظيمة.

كان ذلك عاملاً في صالح الثورة.

هل كان الكيومينتانغ منظمة جاهريّة في ثاني مراحل الثورة. نعم. لا جدال في ذلك. وإنه لأمر أكيد أن كان منظمة أكثر جاهريّة مما كان له زمن كاتنون.

إذن، هل كانت ووهان مركز الحركة الثورية؟ نعم. لا جدال في ذلك. ولا ينكره إلا أعمى. فلو كان الأمر على خلاف ذلك لما كانت ووهان (هوباي، هونان) آنذاك قاعدة نهوض أقصى في الثورة الزراعية التي يقودها الحزب الشيوعي.

قامت سياسة الشيوعيين نحو الكيومينتانغ على دفعه نحو اليسار وتحويله نواة دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية الثورية.

هل ذلك التحويل ممكنا؟ نعم. وفي جميع الأحوال ما من سبب يدفع إلى الاعتقاد أنّ مثل تلك الإمكانيّة مستعدة. فنقول بكل وضوح: كي نجعل من كيومينتانغ ووهان مركزا لدكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية الثوريّة يلزمننا شرطان: جعل الكيومينتانغ ديمقراطيا على نحو جذري؛ ومساعدته في الثورة الزراعيّة مساعدة مباشرة. إنّ عدم استغلال هذا التحويل سيكون ذلك أمرا أخرق من جانب الشيوعيين.

ما هي نجاحات الشيوعيين في تلك الفترة؟

تطور الحزب الشيوعي خلال تلك الفترة من حزب صغير يتراوح تعداده بين 5 و6 آلاف عضو إلى حزب كبير جماهيري يتراوح تعداده بين 50 و60 ألف عضو.

أصبحت النقابات فيدراليّة ضخمة تمتدّ في كامل الصين يناهز تعدادها 3 ملايين عضو.

تطوّرت منظمات الفلاحين القاعدية فأصبحت اتّحادات ضخمة تضمّ عشرات الملايين من الفلاحين. واكتسبت حركة الفلاحين الزراعيّة أبعادا هائلة واحتلت موقعا مركزيا في الحركة الثوريّة الصينيّة. واكتسب الحزب الشيوعي إمكانيّة تنظيم الثورة علنا. وأصبح قائد الثورة الزراعيّة. وبدأت هيمنة الطبقة العماليّة تتحوّل من شعار إلى واقع ناجز.

الحقّ لم يستطع الحزب الشيوعي الصيني أن يستغلّ كلّ إمكانيات تلك الفترة. وصحيح أنّ لجنة الحزب الشيوعي الصيني التنفيذيّة وقعت في أخطاء خطيرة آنذاك. لكن سيكون من السّداجة أن نعتقد أنّ بإمكان هذا الحزب أن يصبح حزبا بلشفيّا حقيقيّا ذي خطّ واحد على أساس تعاليم الأميّة الشيوعيّة. ولنتذكّر تاريخ حزبنا الذي مرّ بجملة من الانقسامات والانشقاقات والحيانات وغيرها حتّى نفهم أنّ الأحزاب البلشفيّة حقّا لا تولد من خطّ واحد.

ينجح إذن أنّ قيادة الأميّة الشيوعيّة كانت صحيحة في تلك الفترة أيضا.

هل للطبقة العماليّة الصينيّة حلفاء الآن؟

نعم. لها ذلك.

الفلاحون وفقراء المدن هم حلفاؤها.

ما يميّز الفترة الحاليّة هو انتقال قيادة كيومينتانغ ووهان إلى معسكر أعداء الثورة؛ وتخلّي المثقفين البرجوازيين الصغار عن الثورة.

نفسر هذا التخلي، أولاً، بالخوف الذي تثيره الثورة الزراعية المتعاضمة في المثقفين البرجوازيين الصغار، والضغط الذي يمارسه الإقطاعيون على قيادة ووهان؛ وثانياً، بالضغط الامبريالي في منطقة تيان-تسين أين يفرضون على الكيومينتانغ مقاطعة الشيوعيين مقابل السماح لهم بالتحرك في الشمال.

تشكّ المعارضة وفي وجود بقايا إقطاعية في الصين. لكن من الواضح الآن أن البقايا الإقطاعية لا توجد فحسب بل اتضح أنّها من زخم الثورة الحالي. وتحملت الثورة هزيمة مؤقتة لأنّ الامبرياليين والإقطاعيين، تحديداً، هم الأقوى في الصين.

لقد خسرت الثورة المثقفين البرجوازيين الصغار هذه المرة. وتلك علامة هزيمتها المؤقتة على وجه التحديد.

لكنها جمعت، في المقابل، الجماهير الهائلة من الفلاحين وفقراء المدن على نحو قوي. وخلقت من ذلك مجالاً للهمنة العمالية. وإيّاً ذلك للثورة حافز.

تفسّر المعارضة الهزيمة المؤقتة في الثورة بسياسة الأمية الشيوعية. لكن لا يقول كذا قولاً إلاّ من قطع مع الماركسيّة. فمن كان في قطيعة مع الماركسيّة كان يطالب أن تنتهي السياسة الصحيحة إلى نصر فوري على العدو دائماً وبالضرورة.

هل كانت سياسة البلاشفة صحيحة زمن ثورة 1905؟ نعم. لقد كانت صحيحة. فلماذا منيت ثورة 1905 بهزيمة رغم وجود السوفييتات ورغم صحّة سياسة البلاشفة؟ لأنّ بقايا الإقطاع والحكم المطلق كانا آنذاك أقوى من حركة العمال الثورية.

هل كانت سياسة البلاشفة صحيحة في تموز 1917؟ نعم. لقد كانت صحيحة. فلماذا منيت البلاشفة بالهزيمة من جديد رغم وجود السوفييتات التي خانتهم، ورغم صحّة سياسة البلاشفة؟ لأنّ الإمبريالية الروسية كانت أقوى من حركة العمال الثورية.

لا تؤدي السياسة الصحيحة إلى انتصار فوري على العدو دوماً وبالضرورة. فالانتصار الفوري على العدو لا تحدّد سياسة صحيحة فحسب بل أيضاً وفي المقام الأول وعلى الأخص ميزان القوى الطبقيّة وهيمنة قوى الثورة هيمنة بيّنة وتشكّت معسكر العدو ووضع عالمي ملائم.

إنّ سياسة صحيحة تسلكها الطبقة العمالية لا تؤدّي إلى انتصار فوري إلاّ في تلك الظروف.

لكنّ الالتزام بسياسة صحيحة على الدوام وفي جميع الظروف إنّما هو مطلب ضروري. إنّ هذا المطلب يقضي أن تنمي سياسة الحزب القدرة الكفاحية عند الطبقة العاملة، وأن تضاعف صلاتها بالجمهير الشّغيلة، وأن تعلي نفوذ الطبقة العاملة بين الجماهير، وأن تضمن هيمنة الطبقة العاملة في الثّورة.

أيمكننا أن نجزم أنّه قد توقّر حدّ أدنى من الظروف الملائمة لانتصار فوري في الثّورة الصّينية خلال الفترة المنقضية؟ لا. ذلك بيّن.

أيمكننا أن نجزم بأنّ السياسة الشّيعوية في الصّين لا تنمي القدرة الكفاحية عند الطبقة العاملة ولم تضاعف صلاتها بالجمهير الواسعة ولم تعلي نفوذ الطبقة العاملة بين تلك الجماهير؟ لا. ذلك بيّن.

إنّه لأعمى ذاك الذي لا يرى كيف أنّ الطبقة العاملة الصّينية نجحت آنذاك في أن تعزل الجماهير الفلاحية الواسعة والمتفقين البرجوازيين الصّغار معا عن البرجوازية الوطنيّة وأنّ تجتمعهم حول رايّتها.

كان الحزب الشّيعوي قد مرّ بتكتل مع البرجوازية الوطنيّة في كاتون في أولى مراحل الثّورة حتّى يوسّع من رقعة الثّورة، ويجعل من نفسه حزبا جماهيريّا، ويتمكّن من تنظيم الطبقة العاملة علنا، ويشقّ طريقه إلى الفلاحين.

وكان الحزب الشّيعوي قد مرّ بتكتل مع المتفقين البرجوازيين الصّغار في الكيومينتانغ في ووهان خلال ثاني مراحل الثّورة حتّى يضاعف قواه، ويوسّع تنظيم الطبقة العاملة، ويعزل جماهير الفلاحين الهائلة عن قيادة الكيومينتانغ، ويخلق ظروف هيمنة الطبقة العاملة. لقد انتقلت البرجوازية الوطنيّة إلى معسكر أعداء الثّورة خاسرة صلاتها بالجمهير الشّعبية الهائلة.

والتحق المتفقون البرجوازيون الصّغار في كيومينتانغ ووهان بالبرجوازية الوطنيّة فرعا من الثّورة الزراعيّة ومفصوحين تماما أمام عيون جماهير الفلاحين التي لا تحصى. أمّا جماهير الفلاحين العظيمة فقد تجمّعت حول الطبقة العاملة على نحو أقوى، وباتت ترى فيها قائدها وزعيمها الوحيد المخلص.

أليس من الواضح أن مثل تلك النتائج لا يمكن أن تقدّمها إلّا سياسة صحيحة؟

أليس من الواضح أنّ قدرة الطبقة العمالية الكفاحية لا يمكن أن تفيها إلا مثل تلك السياسة؟

أهناك من ينكر ما في تلك السياسة من صواب وروح ثورية غير قادة معارضتنا التعمساء؟ تؤكد المعارضة أن انتقال كيومينتانغ ووهان إلى معسكر أعداء الثورة يثبت أنّ التكتل معه في ثاني مراحل الثورة كان سياسة خاطئة.

لكن لا يتجزأ في الحديث على هذا النحو إلا من نسي تاريخ البلشفية وفقد آخر بقايا اللينينية.

هل كانت السياسة البلشفية التي قوامها التكتل الثوري مع يسار الاشتراكيين-الثوريين في أكتوبر وبعده إلى حدود ربيع 1917 سياسة صحيحة؟ أعتقد أن لا أحد بلغ به الأمر إلى حدّ الآن أن ينكر صحة ذلك التكتل. كيف انتهى ذلك التكتل؟ بانتفاض يسار الاشتراكيين-الثوريين على السلطة السوفيتية. فهل يمكننا أن نجزم على أساس ذلك أنّ سياسة التكتل مع يسار الاشتراكيين-الثوريين كانت خاطئة؟ لا. ذلك بين.

هل كانت سياسة التكتل مع كيومينتانغ ووهان في ثاني مراحل الثورة الصينية سياسة صحيحة؟ أعتقد أن ما من أحد إلى حدّ الآن ينكر صحة ذلك التكتل في ثاني مراحل الثورة. ولقد كانت المعارضة نفسها تؤكد صواب ذلك التكتل آنذاك (نيسان 1927). فكيف يمكننا أن نعلن الآن، وقد تخلت قيادة كيومينتانغ ووهان عن الثورة، أنّ التكتل الثوري مع كيومينتانغ ووهان كان سياسة خاطئة بسبب ذلك التخلي؟

أليس من الواضح أنّ من يقدم مثل هذه «الحجج» إنما هو عديم الشخصية؟ هل أكد أحد أنّ التكتل مع كيومينتانغ ووهان سيكون أزلنا ومطلقا؟ وهل توجد تكتلات أزلية ومطلقة في الطبيعة؟ أليس من الواضح أنّ المعارضة لم تفهم شيئا إطلاقا من المبدأ التكتيكي الثاني في اللينينية المتعلق بالتكتل الثوري من جانب الطبقة العمالية مع الطبقات والمجموعات غير العمالية.

إليكم كيف يصوغ لينين هذا المبدأ التكتيكي:

«لا يمكن هزم عدو أكثر قوة إلا ببذل أقصى الجهد ولا بدّ أثناء ذلك من الاستفادة كل الاستفادة، وبمتهى الاهتمام واليقظة، من أيّ «صدع» فيما بين الأعداء مما كان ضئيلا، ومن أيّ تناقض في المصالح بين برجوازية مختلف البلدان، وبين مختلف المجموعات والفئات

الرجوازية داخل كل بلد، وكذلك من الاستفادة من أية إمكانيّة، مما كانت ضئيلة، لكسب حليف جاهري، ولو كان حليفا مؤقتا ومتذبذبا وظرفيا وضعيفا وغير موثوق. ومن لم يفهم هذا الأمر إنّما لم يفهم ولو حرفا واحدا من الماركسيّة ومن الاشتراكية العلميّة الحديثة بوجه عام. فمن لم يثبت عمليّا، خلال مدّة طويلة جدّا وفي أوضاع سياسيّة متنوّعة جدّا، قدرته على تطبيق هذه الحقيقة في العمل، فإنّه لم يتعلّم بعدُ كيف يساعد الطبقة الثوريّة في نضالها في سبيل تحرير البشريّة الكادحة جمعاء من المستغلّين. وما أتيت على ذكره إنّما يصحّ على المرحلة التي تسبق استيلاء الطبقة العماليّة والمرحلة تليها.﴾ (لينين، «اليساريّة» مرض طفولي في الشّيوعيّة، المجلّد 25، ص 227-228)

أليس من الواضح أنّ خطأ المعارضة هو الخط الذي يقطع مع هذا المبدأ التكتيكي في اللينينيّة؟

أليس من الواضح أنّ خطأ الأميّة الشّيوعيّة هو الخط الذي يقضي أن نأخذ هذا المبدأ التكتيكي بعين الاعتبار جبرا؟

لنتقل إلى المبدأ التكتيكي الثّالث في اللينينيّة.

يتعلّق هذا المبدأ بقضيّة تغيير الشّعارات، بعالم ذلك التغيير ووسائل إنجازه؛ ويتعلّق بقضيّة معرفة كيف يمكن أن تصبح شعارات الحزب شعارات الجماهير، قضيّة معرفة كيف يمكن أن نصل بالجماهير إلى مواقف ثوريّة حتّى تقنن بصحّة شعارات الحزب من خلال تجربتها السياسيّة الخاصّة.

لا يمكننا أن نقنع الجماهير بالدّعاية والتحرّيش حصرا. فذلك يستوجب تجربة سياسة خاصّة بالجماهير نفسها. فيجب أن تحسّ أوسع الجماهير بنفسها وعلى طريقتها الخاصّة بضرورة الإطاحة بالنظام القائم وضرورة إرساء نظام سياسي واجتماعي جديد.

من المهمّ جدّا أن يكون الحزب ذلك الجزء الطليعي قد اقتنع بضرورة الإطاحة بحكومة ميلووكو-كيرينسكي في نيسان 1917. لكن ذلك لا يكفي بعدُ حتّى نشرع في توجيه العمل نحو الإطاحة بتلك الحكومة؛ فنجعل من شعار الإطاحة بالحكومة المؤقتة وإرساء سلطة السوفييات شعار السّاعة. فحتى نجعل من صيغة «كل السّلطة للسوفييات»، وهي صيغة

تعبّر عن أفق الفترة القريبة، شعار الساعة أي شعار عمل فوري، نحتاج إلى حالة فاصلة وهي أن تقتنع الجماهير نفسها بصحة ذلك الشعار وتقدّم للحزب عوناً في إنجازه. يجب أن نميز بدقة تناول الصيغة من جهة أمّا أفق المستقبل القريب من تناولها من جهة أمّا شعار الساعة.

ذلك ما أحبط، تحديداً، مجموعة البلاشفة وعلى رأسها باغداديايف، لما أطلقت شعار «لتسقط الحكومة المؤقتة، كلّ السّلطة للسوفيينات!» في وقت مبكّر جدّاً وكان ذلك في بيتروغراد في نيسان 1917. وقد وصف لينين محاولة مجموعة باغداديايف تلك بأنّها تحوي روح مغامرة خطيرة وحاربها أمام الجميع.

فلم تكن الجماهير الواسعة في المؤخّرة وفي الجبهة جاهزة بعد لتقبل ذلك الشعار. وخلطت تلك المجموعة صيغة «كلّ السّلطة للسوفيينات» من جهة أمّا أفق بشعار «كلّ السّلطة للسوفيينات» من جهة أنّه شعار الساعة. فإذا بتلك المجموعة تتقدّم بسرعة مفرطة فيهدّد ذلك الحزب بالانزعال تماماً عن الجماهير الواسعة والسوفيينات التي لا تزال تؤمن بوجود روح ثوريّة في الحكومة المؤقتة.

هل كان على الشيوعيين الصّينيين أن يطلقوا شعار «لتسقط قيادة كيومينتانغ ووهان» منذ ستة أشهر مضت؟ لا. لم يكن عليهم ذلك.

لم يكن عليهم ذلك وإلا كان ذلك سبق خطير يعيق صلة الشيوعيين بأوسع جماهير الشغيلة التي كانت لا تزال تثق في كيومينتانغ ووهان؛ وإلا عزل ذلك الحزب الشيوعي عن جماهير الفلاحين العظيمة.

لم يكن عليهم ذلك لأنّ قيادة كيومينتانغ ووهان ولجنته المركزية لم يكن لهما من الوقت الكافي لتستنفذا كلّ إمكانياتها من جهة أنّها حكومة ثوريّة برجوازيّة. ولم يكن لهما من الوقت الكافي حتّى تنكشفا وتفضحا أمام عيون جماهير الشغيلة العظيمة من خلال مقاومة تلك القيادة الثّورة الزراعيّة والطبقة العماليّة ومن خلال انضمامها إلى أعداء الثّورة.

كنا نقول دائماً أنّه لا يجب أن نوجه الأمور نحو الانتقاص من أهمية كيومينتانغ ووهان وتغييره طالما لم يستنفذ بعد كلّ إمكانياته من جهة أنّه حكومة ثوريّة برجوازيّة وأنّ نمكّنه من الوقت حتّى يستنفذها قبل أن نتناول قضيّة تعويضه تناولاً عمليّاً.

هل يجب على الشيوعيين الصينيين أن يعرفوا اليوم شعار «لتسقط قيادة كومينتانغ ووهان»؟ نعم. يجب عليهم ذلك مطلقاً الجواب.

فاليوم، وقد تورّطت قيادة كومينتانغ ووهان في محاربة الثورة وطالها عداء جاهير العمال والفلاحين العظيمة، يجد هذا الشعار صدى قوياً بين الجماهير الشعبية. اليوم يفهم كلّ عامل وكلّ فلاح أن الشيوعيين على صواب عندما يغادرون حكومة ووهان ولجنة كومينتانغ ووهان المركزية ويرفعون شعار «لتسقط قيادة كومينتانغ ووهان».

يجد العمال والفلاحون اليوم أنفسهم أمام خيار: إما قيادة الكومينتانغ الحالية التي ترفض تلبية مطالبهم الحيوية وترفض إنجاز الثورة الزراعية، وإما الثورة الزراعية وتحسين وضع الطبقة العاملة تحسيناً جذرياً وتغيير قيادة كومينتانغ ووهان هو شعار الساعة عندهم.

ذلك ما يستوجبه المبدأ التكنيكي الثالث في اللينينية فيما اتصل بتغيير الشعارات وسبل ووسائل الارتقاء بالجماهير العظيمة إلى مواقف ثورية جديدة، ومعرفة كيف يساعد الحزب، من خلال سياسته وأنشطته والتغيير المناسب لبعض الشعارات، جاهير الشغيلة العظيمة على الاعتراف بصحة خطّ الحزب من خلال تجربتها الخاصة.

إليك كيف يصوغ لينين هذا المبدأ التكنيكي:

﴿لا الانتصار بقوى الطبيعة وحدها. وزجّ الطبيعة وحدها في معركة حاسمة، قبل أن تكون الطبقة كلّها والجماهير الواسعة قد اتخذت إماماً موقف التأييد المباشر للطبيعة وإماماً، على الأقلّ، موقف حياد يتسم بالنية الطيبة تجاهها، بحيث تكون غير قادرة أبداً على تأييد عدوّ الطبيعة، لا يكون حماقة فحسب، بل جريمة أيضاً. فلكي تتخذ الطبقة كلّها فعلاً، وجماهير الكادحين الواسعة فعلاً، ويتخذ من تضطهدهم الرأسمالية، مثل هذا الموقف، لا تكفي العناية وحدها والتحريض وحده. فلزم لذلك أن يكون لتلك الجماهير تجربتها السياسية الخاصة. ذلك هو القانون الأساسي في جميع الثورات الكبرى، وقد أثبتته الآن روسيا وفضلاً عنها ألمانيا بقوة وجلاء ساطعين. فلم يكن الأمر يتطلّب من الجماهير الروسية، غير المثقفة والأمية في أغلبها، وحدها بل كان الأمر يتطلّب من الجماهير المثقفة ثقافة عالية والمتعلّمة كلّها في ألمانيا أيضاً. أن تلمس بتجارها المرة كلّ عجز حكومة فرسان الأميّة الثانية وكلّ ميوعتها، وكلّ وهنّها وكلّ خنوعها أمام البرجوازية، وكلّ دناءتها، وكلّ حتمية دكتاتورية الرجعيين المتطرفين (كورنيلوف في روسيا وكاب وشركائه في ألمانيا) باعتبارها البديل الوحيد عن دكتاتورية

الطبقة العاليتية، حتى تتجه تلك الجماهير بصورة قاطعة نحو الشيوعية. إن المهمة المباشرة التي تواجهها الطليعة الواعية من الحركة العاليتية العالمية، أي الأحزاب والفرق والتيارات الشيوعية، هي أن تكون قادرة على دفع الجماهير الواسعة (التي لا تزال في أغلب الأحوال ساكنة، بليدة الحس، تقيدها الرتابة) نحو هذا الوضع الجديد، أو بالأصح، أن تكون قادرة على قيادة حزبها، وليس حزبها فقط، بل وتلك الجماهير أيضا، أثناء اقترابها من ذلك الوضع الجديد وانتقالها إليه.» (لينين، «اليسارية» مرض طفولي في الشيوعية، المجلد 25، ص 228)

الخطأ الأساسي عند المعارضة هو أنها لا تفهم مغزى هذا المبدأ التكتيكي في اللينينية وأهميته. فهي لا تقبله مطلقا وتحيد عنه بانتظام.

لقد حادت المعارضة (التروتسكيون) عن هذا المبدأ التكتيكي في مطلع عام 1917، عندما حاولت «الفقر» إلى ما بعد الحركة الزراعية التي لم تكتمل بعد (انظر في ما كتب لينين). وحادت المعارضة (تروتسكي، زينوفيف) عنه عندما حاولت «الفقر» لتجاوز الروح الرجعية في النقابات معلنة أن لا جدوى من عمل الشيوعيين في النقابات الرجعية وإقامة تكتلات مؤقتة معها.

تعتقد المعارضة أنها إذ فهمت واعترفت بالطابع الهجين عند الكيومينتانغ وتردداته وهشاشته، وإذ اعترفت بالطابع الوقي والمشرط للتكتل مع الكيومينتانغ (وذلك أمر لا يصعب فهمه على أي مناضل كفاء)، فإن ذلك يكفي تماما لنتخذ «عملا فاصلا» ضد الكيومينتانغ، ضد سلطة الكيومينتانغ؛ أن ذلك يكفي تماما حتى تساند الجماهير العظيمة من العمال والفلاحين «عملنا الفاصل» قلبا وقالبا.

تنسى المعارضة هنا أن فهم «نا» أبعد من أن يكون كافيا حتى يتمكن الشيوعيون الصينيون من جرّ الجماهير ورائهم. فالمعارضة تنسى أنه يلزم لذلك أيضا أن تعترف الجماهير بهشاشة قيادة الكيومينتانغ وروحها الرجعية المعادية للثورة وذلك من خلال تجربتها الخاصة.

تنسى المعارضة أن الثورة لا «تحدث» فقط بالطليعة، الحزب، أو الشخصيات وإن كانت «هامة» ولكنها تكون بالجماهير الشعبية العظيمة قبل كل شيء وعلى الأخص.

فمن الغريب أن تنسى المعارضة حال الجماهير الشعبية العظيمة ووعياها وإن كانت جاهزة لعمل فاصل.

ألم نكن نعرف نحن، الحزب ولينين أنّ من اللازم علينا أن نطّيح بحكومة ميمونوكوف-كيرنيسكي المؤقتة في نيسان 1917؛ وأنّ وجود الحكومة المؤقتة لا يتوافق ونشاط السوفييتات؛ ويجب أن تنتقل السلطة إلى السوفييتات؟ نعم. كنا نعرف ذلك. لماذا إذن ندّد لينين في بيترسبورغ في نيسان 1917 بمجموعة بلاشفة يترعّمها باغدادياف بأنّها مجموعة مغامرة عندما أطلقت شعار «لنسقط الحكومة المؤقتة، كلّ السلطة للسوفييتات» لتطّيح بالحكومة المؤقتة؟

لأنّ الجماهير العظيمة من الكادحين وقسم من العمّال وملايين من الفلاحين وجاهير الجيش والسوفييتات نفسها لم تكن جاهزة بعد لتقبّل ذلك الشعار من جهة أنّه شعار الساعة. لأنّ الحكومة المؤقتة والأحزاب البرجوازية الصغيرة من الاشتراكيين-الثوريين والمناشفة لم يستنفذوا بعد كلّ إمكانياتهم حتّى يفضحوا كفاية أمام عيون الجماهير الكادحة التي لا تحصى. لأنّ لينين كان يعلم أنّه لتطّيح بالحكومة المؤقتة وتركّز سلطة السوفييتات، لا يكفي لذلك ما لدى طبقة العالّية، حزب الطبقة العالّية، من فهم ووعي، بل يلزم لذلك أيضا أن تقتنع الجماهير نفسها بصحّة ذلك الخطّ بتجربتها الخاصّة.

لأنّه كان لا بدّ أن نمرّ بكامل ذلك المشهد من التحالفات والحيانة والغدر من جانب الأحزاب البرجوازية الصغيرة في حزيران وتموز وآب من عام 1917، والتحالف الوفي بين أضراب كورنيلوف وميلوكوف، وتمرد كورنيلوف وغير ذلك، حتّى فهمت الجماهير الكادحة التي لا تحصى أنّ الإطاحة بالحكومة المؤقتة وتركيز سلطة السوفييتات إنّما هما أمران لا مفترّ منهما. لأنّه في مثل تلك الظروف فقط يكفّ شعار سلطة السوفييتات عن أن يكون أفقا ليصبح شعار الساعة.

إنّ تعاسة المعارضة هي أنّها تقترف دائما نفس الخطأ الذي كان وقع فيه باغدادياف آنذاك؛ وأنّها إذ تتخلّى عن طريق لينين فهي تحتدّ أن «تسير» على في طريق باغدادياف. ألم نكن نعرف نحن الحزب ولينين أنّ الجمعية التأسيسية لا تتوافق ونظام السلطة السوفييتية عندما شاركنا في انتخاب الجمعية التأسيسية وحتّى عندما طلبناها في بيتروغراد؟ نعم. كنا نعرف ذلك.

لماذا طلبناها؟ وكيف حدث أنّ شارك البلاشفة في انتخاب الجمعية التأسيسية وطلبوا هذه الأخيرة في الوقت الذي تُشيد فيه السلطة السوفييتية وهم أعداء البرلمانية البرجوازية؟ هل

كان ذلك من باب «التذليل»؟ هل كان ذلك من باب إبطاء الأحداث و«كبح جموح الجماهير» وكبح تكنيك «المدى البعيد»؟ لا. ذلك بديهي.

لقد استخدمها البلاشفة لیساعدوا الجماهير المتأخرة من الشعب على الاقتناع بأم عينها بعجز الجمعية التأسيسية وروحها الرجعية المعادية للثورة. لقد كان ذلك السبيل الوحيد أمام البلاشفة حتى يكسبوا إلى صفهم الجماهير التي لا تحصي من الفلاحين ويسهل حل الجمعية التأسيسية.

إليكم ما كتبه لينين في هذا الشأن:

«لقد شاركنا نحن في انتخابات البرلمان البرجوازي - الجمعية التأسيسية- في أيلول-تشرين الثاني عام 1917. هل كان تكنيكنا صحيحا أم لا؟ ... ألم يكن من حقنا، نحن البلاشفة الروس، في أيلول-تشرين الثاني عام 1917، أكثر من أي من الشيوعيين الغربيين، أن نعتبر البرلمانية في روسيا قد ولت عهدا سياسيا؟ بالطبع كان ذلك من حقنا، لأن القضية ليست في كون البرلمانات البرجوازية موجودة من أمد بعيد أو قريب، بل في قدر استعداد الجماهير الغفيرة الكادحة (استعدادا فكريا وسياسيا وعمليا) لقبول النظام السوفيتي وحلّ (أو السماح بحلّ) البرلمان البرجوازي الديمقراطي. أما أن تكون الطبقة العاملة في المدن والجنود والفلاحين في روسيا في أيلول عام 1917 كانوا بحكم بعض الظروف الخاصة محبتين بصورة ممتازة لقبول النظام السوفيتي وحلّ أكثر البرلمانات البرجوازية ديمقراطية، فهذا واقع لا جدال فيه مطلقا وحقيقة تاريخية مقررة تماما. ومع ذلك فإنّ البلاشفة لم يقاطعوا الجمعية التأسيسية، بل اشتركوا في الانتخابات، سواء قبل أو بعد ظفر الطبقة العاملة بالسلطة السياسية...

إنّ ما يُستنتج من كلّ ذلك لا جدال فيه إطلاقا: لقد ثبت أنّ الاشتراك في البرلمان البرجوازي الديمقراطي، حتى لبضعة أسابيع قبل انتصار الجمهورية السوفيتية، وحتى بعد هذا الانتصار، لا يضّر الطبقة العاملة الثورية، بل يسهّل لها إمكانية أن تثبت للجماهير المتأخرة لماذا تستوجب هذه البرلمانات الحلّ، وهو يسهّل التّحاج في حلّها، ويسهّل «الإلغاء السياسي للبرلمانية» البرجوازية.» (لينين، «اليسارية» مرض طفولي في الشيوعية، المجلّد

25، ص 201-202)

على هذا النحو كان البلاشفة يطبقون المبدأ التكنيكي اللينيني الثالث.

وعلى هذا النحو يجب أن نطبق التكتيك البلشفي في الصين فلا يهيم إن تعلق الأمر بالثورة الزراعية أو بالكيومينتانغ أو بشعار سلطة السوفييتات.

تعتقد المعارضة أن الثورة الصينية قد انهزمت هزيمة كاملة. من البديهي أن لا شيء من ذلك القبيل. فأن تمنى الثورة الصينية هزيمة مؤقتة فذلك أمر لا شك فيه. لكن يتعلق الأمر الآن بأن نعرف فيما تقوم هذه الهزيمة وما مدى عمقها.

من الممكن أن تدوم هذه الهزيمة مدة تقارب مدة هزيمة ثورة 1905 في روسيا حيث توقفت الثورة خلال اثنتي عشر عاما طويلا حتى أمكنها أن تنفجر من جديد في شباط 1917 بقوة جديدة وتطيح الحكم المطلق ونشق طريقا لثورة جديدة الثورة السوفييتية.

لا نستبعد مثل هذا الأفق. وليست بالهزيمة الكاملة بعد شأنها شأن ثورة 1905 التي لم تكن هزيمة نهائية. ليست هزيمة نهائية لأن الأهداف الرئيسية في الثورة الصينية في الطور الحالي من تطورها - الثورة الزراعية، توحيد الصين ثوريا، التحرر من الاضطهاد الإمبريالي - لا تزال تنتظر الحل. وإذا ما أصبح هذا الأفق واقعا فلن يتعلق الأمر بقضية تشكيل سوفييتات نقاب العمال والفلاحين فورا في الصين. لأن السوفييتات لا تتشكل ولا تزدهر إلا في حال نهوض ثوري.

لكن هذا الأفق غير محتمل. وليس هناك الآن، على أي حال، ما يدفنا إلى ذلك الاعتقاد. أبدا. فأعداء الثورة لم يتحدوا بعد ولن يتحدوا قريبا حتى وإن قدر لهم ذلك في يوم من الأيام.

فالحرب تستجد بين العسكريين قدامى وجدد بقوة جديدة ولن يكون ذلك دون إضعاف قوة أعداء الثورة وأن يزيد من هلاك الفلاحين وغضبهم.

ولا يوجد في الصين بعد مجموعة أو حكومة تقدر على بسط حتى أمر من قبيل إصلاح ستوليين، إصلاح يمكن أن تتخذه المجموعات القائمة مظلة لها.

وملايين الفلاحين الذين استحوذوا على أراضي المالكين العقاريين ليس من السهل نزعهم عن الأرض والصاقهم بها.

ونفوذ الطبقة العالية يتعاضم في عيون الجماهير الكادحة يوما بعد يوم. وقواها أبعد من أن تكون قد تحطمت.

من الممكن أن تماثل هزيمة الثورة الصينيّة الهزيمة التي تكبدها البلاشفة في تموز 1917 عندما خاتمتهم سوفيات المناشفة والاشتراكيين-الثوريين واضطروا وقتئذ إلى الانتقال إلى السريّة لتخرج الثورة من جديد إلى الشارع بعد بضعة أشهر وتكنس الحكومة الروسية الإمبرياليّة. من البديهي أنّ المماثلة هنا تقريبية. ولا أقبلها إلاّ بجميع التحقّطات التي يفرضها الاختلاف بين الوضع الصيني اليوم وذاك الذي كان في روسيا عام 1917. ولم الجأ إلى هذه المماثلة إلاّ لتناول تقريبي المدى عمق هزيمة الثورة الصينيّة.

أعتقد أنّ هذا الأفق هو الأكثر احتمالاً. وإذا ما أصبح هذا الأفق واقعا، وإذا ما أصبح نهوض جديد في الثورة واقعا في وقت قريب (ليس بالضرورة خلال شهرين بل خلال ستة أشهر أو عام) أمكن أن تطرح قضية تشكيل سوفيات نواب العمّال والفلاحين من جهة أنّها شعار الساعة وبديلا للحكومة البرجوازيّة. لماذا؟

لأنّ في ظروف نهوض جديد في الثورة وفي الطور الحالي من تطوّرها، سيكون تشكيل السوفيات قضية ناضجة بما فيه الكفاية حتى يفصل فيها. فبالأمس، منذ أشهر مضت، لم يكن من الواجب على الشيوعيين في الصين أن يرفعوا شعار السوفيات. لأنّ ذلك سيكون وقتئذ ضرب من روح المغامرة يخصّ معارضتنا لأنّ قيادة الكيومينتانغ لم يكن لها من الوقت الكافي حتى ينكشف عداؤها للثورة. أمّا اليوم فيمكن أن يصبح شعار السوفيات شعارا ثوريا حقا إذا ما جدّ نهوض ثوري جديد وقوي في المستقبل القريب.

لهذا السبب يجب، منذ الآن، وقبل أن يندلع نهوض، ومن خلال التّضال في سبيل استبدال حكومة الكيومينتانغ الحالية بقيادة ثوريّة، أن تقوم عمل واسع النطاق من التحريض بين صفوف الجماهير الكادحة العظيمة لصالح فكرة السوفيات، دون تسرع ودون تشكيل السوفيات اليوم، دون أن يغيب عن البال أن السوفيات لا تزدهر إلاّ في حال نهوض ثوري قوي.

يمكن أن تقول المعارضة أنّها «أول» من قدّم ذلك. وأنّ ذلك هو ما يسمّى عندها تكتيك «المدى البعيد».

خطأً مطلق الخطأ. فليس ذاك تكتيك «المدى البعيد» وإِثْمًا هو تكتيك الصّال وتكتيك ضربة هنا وأخرى هناك.

فعندما طالبت المعارضة بانسحاب الشيوعيين الفوري من الكيومينتانغ في نيسان 1926، كان ذلك تكتيك الضربات البعيدة لأنّ المعارضة نفسها كانت قد اعترفت بأنّ على الشيوعيين أن يبقوا في الكيومينتانغ فيما بعد.

وعندما أعلنت المعارضة أنّ الثورة الصينيّة ثورة من أجل الاستقلال المغربي، كان ذلك تكتيك الضربات القصيرة لأنّ المعارضة كانت قد تخلّت عن صيغتها بتكتم فيما بعد.

وعندما أعلنت المعارضة في نيسان 1927 أنّ بقايا الإقطاع في الصين كانت أمرا مبالغ فيه متناسية وجود الحركة الزراعيّة الجماهيرية، كان ذلك تكتيك الضربات القصيرة لأنّ المعارضة نفسها اضطرت إلى الاعتراف بخطئها فيما بعد.

وعندما أطلقت المعارضة في نيسان 1927 شعار التشكيل الفوري للسوفييتات، كان ذلك تكتيك الضربات البعيدة لأنّ أنصار المعارضة أنفسهم اعترفوا بوجود تناقضات في معسكرهم. فالأول (تروتسكي) طالب بأن توجه الأمور نحو الإطاحة بحكومة ووهان أمّا الآخر (زينوفيف) فأراد أن «نساعد» نفس الحكومة «بكلّ الوسائل».

لكن منذ متى كان يسمى عندنا تكتيك ضربة هنا وأخرى هناك المتكرر دوما تكتيك «الضربات البعيدة»؟

ويجب أن نقول في ما تعلق بالسوفييتات أنّ الأميّة الشيوعيّة كانت قد سبقت المعارضة وتحدّثت عن السوفييتات في الصين من جهة أنّها أفق. ولكنّ السوفييتات من جهة أنّها شعار الساعة على النحو الذي صاغته المعارضة في الربيع الماضي من جهة أنّه بديل للكيومنتانغ الثوري، (فلو لم يكن الكيومينتانغ ثوريا لما احتاج زينوفيف إلى الصياح لـ«نساعد» الكيومينتانغ «بكلّ الوسائل») فإنّما هو مغامرة وسبق مشحون بحبّ التظاهر. وهو في ذلك لعلّ ما كان عليه باغداديايف في نيسان 1917 من مغامرة وسبق.

فإنّ أمكن أن يصبح شعار السوفييتات شعار الساعة في الصين في مستقبل قريب فلا يمكن أن نستخلص من ذلك أنّ ما كانت المعارضة قد صاغته في ربيع هذا العام لم يكن مغامر خطيرة ومقلّقة.

وإذا كان لينين قد أقرّ ضرورة شعار «كلّ السّلطة للسوفييتات» ووجده مناسباً في أيلول 1917 (قرار اللجنة المركزيّة المشهور في الانتفاضة) فلا يمكن أن نستخلص من ذلك أنّ ما صاغه باغداديايف في نيسان 1917 لم يكن مغامرة مقلّقة وخطيرة.

كان بإمكان باغداديايف أن يقول في أيلول 1917 أنّه «أول» من أوصى بسّلطة السوفييتات منذ نيسان 1917. هل ينتج عن ذلك أنّ باغداديايف على صواب في حين كان لينين على خطئ فادح لما وصف مداخلته في نيسان 1917 بروح المغامرة؟

لا تفهم المعارضة أنّ الأمر لا يتعلّق أبداً بمن كان «أول» من تناول الشّأن بسبق وإساءة للثورة وإنّما يتعلّق بأن نتناول ذلك الشّأن في ما يناسبه من وقت وعلى نحو تفهم فيه الجماهير ذلك الشّأن وتنجزه.

تلك هي الوقائع.

والحصيلة عند المعارضة هي التخلي عن التكتيك اللينيني مقابل سياسة قوامها روح مغامرة «أقصى اليسار» ❁

أونشر 2012